

هذه الآثار البعيدة لم تستطع أن تنفذ إلى إطار الشعر والأدب وإن كانا مظهرًا أساسياً من مظاهر هذا النشاط . بل إن الذي يؤكده الناقد في معرض الحديث عن نقد ابن قتيبة في « الشعر والشعراء » هو تلك الأحكام الخاصة بنفوذ القديم وسلطان الشعر الجاهلي ، يقول :

« وهذه النظرة المجردة إن صححت أمام العقل ، فهي لا تصح أمام الواقع كما يبصرنا به تاريخ الأدب العربي ، وإنما كانت تصح لو أن الشعر العربي استطاع أن يفلت من تأثير الشعر القديم ... ومع هذا فما يجوز أن نطمع في دراسات تشبه دراسات نقاد الغرب لآدابهم ، فثمة فوارق كبيرة بين أدبنا وآدابهم ، وأصل كل تلك الفوارق هو غلبة التقاليد على شعرنا ابتداء من العصر العباسي » (١) .

هذا ما يخص إذن تقاليد الشعر الجاهلي واستمرار القديم دون تأثر يذكر مع تقدم الزمن . ولسكننا على أي حال لن ننتظر طويلاً حتى نرى الدكتور مندور يعرض في صورة مباشرة للفكرة الأساسية التي نبحث عنها ، فيقرن بين نزعة التقليد وتأثير الإسلام ، ويوضح كيف قفزت الأولى على أكتاف الثانية دون أن تظهر من جانب الثانية عقبة تذكر . ويعلل الناقد لذلك موازناً بين ظروف الأدب العربي وظروف غيره من آداب القرون الوسطى ، فيقول :

« وأول ما نلاحظه هو أن الإسلام لم يحدث تغيراً كبيراً في تقاليد الشعر العربي ، فنحن مثلاً نلاحظ أن المسيحية قد حطمت الأدب القديم خلال القرون الوسطى تحطيماً شبه تام ، وذلك لأنه كان إنتاجاً مباشراً للديانة الوثنية فلم تقبله المسيحية كما لم يقبله الإسلام . ومن المعلوم أن القرون الوسطى لم تعرف — في الشرق أو الغرب عند المسيحيين أو عند المسلمين — من التفكير اليوناني — إلا المستقل عن المعتقدات الدينية أو الذي أمكن فصله عنها . ولكن

(١) المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ ، ٢٧ .